

الفصل السابع

فتح المدائن

فرّ الفرس بعد القادسية فرار النعام ، فبلغ الجانب الأكبر منهم أطلال بابل ، وتفرق الآخرون في أرجاء فارس . أما المسلمون فأقاموا بالقادسية شهرين حتى أراحوا ظهورهم وأبلّ سعد من مرضه . وكان عمر قد كتب إلى سعد ألا يبرح منزله حتى يأتيه أمره . فلما اطمأن إلى أبناء الجند وأمدّهم ، أمر سعداً بالسير إلى المدائن ، وأن يخلف النساء والعيال بالعتيق ، على أن يجعل معهم كثفاً من الجند يكون لهم حظ سائر الجند من المغنم جزاء حمايتهم عيالات المسلمين .

وقدّم سعد زهرة بن الحوية فسار إلى الحيرة ونزلها ، فلما بلغها عبد الله بن المعتّم وشُرْحَيْيل بن السَّمْط عاود سيره إلى المدائن . ولقيه في أثناء مسيرته جمع من الفرس بئرس^(١) فهزمهم ففروا ينضمون لمن سبقوهم إلى بابل . وعرف زهرة نبأ الذين اجتمعوا ببابل من فلول القادسية فكتب إلى سعد به إذ كان بالحيرة مع هاشم بن عتبة . وسار سعد يريد بابل ، فلقى الفيرزان فهزمه في أسرع من لفت الرداء . وفر الفيرزان إلى نهاوند ، والهزمران إلى الأهواز ، ومهران إلى المدائن . وتقدّم جند المسلمين ، فلقبهم شهر يار بكوئي فقتلوه وهزموا أصحابه ، ونقل سعد سكب شهر يار لمن قتله . وتقدّم زهرة بن الحوية إلى ساباط ، فصالحه أهلها على الجزية ، وذلك حين عرفوا أنه هزم الجند الذي اعترضه فيما بين سورا والدير وقتل قواده . وكذلك كانت جنود المسلمين تسير في أرجاء السواد فلا تلقى مقاومة تذكر ، وكان المدنيون يهرعون من كل صوب إلى أمراء هذه الجنود بالطاعة ، يعلن فريق منهم إسلامه ، ويرضى فريق أداء الجزية ، ويتزل الجميع على حكم هؤلاء الذين غزوهم وأقاموا العدل بينهم ، ثم جكّوا عنهم حين فصل خالد بن الوليد إلى الشام . هاهم أولاء يعودون إليهم في قوة بددت كل أمل في جلاّتهم مرة أخرى . من ذا يجلبهم وقد هلك رسم وتضعفت الروح المعنوية في نفوس الفرس جميعاً ! إنه إذا الإذعان لقضاء قضاه الله

(١) برس : أجمة قرية من بابل . ويسمى بعض المؤرخين بئر النمرود . فيقول البلاذري عن أحمد بن حماد الكوفي : « أجمة برس بحضرة صرح نمرود ببابل . وفي الأجمة هوة بعيدة القمر يقال إنها بئر كان أجر الصرح الخلد من طينها ، ويقال إنها موضع خصف » .

فلا مردّ له ، ولن يقدر عليه أحد .

أقام سعد ببابل ، وقدم زهرة بن الحوية على رأس قوة تسير إلى المدائن . ترى هل أثارت أطلال بابل في نفوس سعد والذين نزلوها ذكر المدينة القديمة التي شهدت حضارة الإنسانية الأولى متداولة بينها وبين طيبة ومنتفيس وعالم الفراعنة الأولين ؟ ! وهل تراهم ذكروا عهد الأشوريين وثقافتهم وما كان لبابل في عهدهم من جلال وعظمة بأسوارها المنيعة ، ومعابدها الضخمة ، وأبراجها الحصينة ، وحدائقها المعلقة ، وقصورها الفخمة مهد الترف والنّعمة والجمال والدلال ؟ هم لا ريب قد ذكروا بُرْجَ بابل ، وذكروا تداول الأمم الطارئة عليه ، حتى أصبح مضرب المثل لكثرة اللغات التي يتكلمها من نزلوه أسارى أو فاتحين . ولكن لعل ما ذكروه من أمر البرج ومن أمر المدينة نفسها لم يتعدّ حديثاً يتداولونه أو يُقَاتِ سمرهم . فقد كانوا في شغل بما هم مقبلون عليه من فتح المدائن . والمدائن عامرة ، وبابل أطلال . والمدائن عاصمة الفرس ، وبابل لم تبق عاصمة ولم تبق مدينة . والمدائن عنوان الحياة ، وبابل أثر دارس لعهد مضى . والناس يتعلّقون بالحاضر وقلما يتخذون من الماضي عبرة . وأكثرهم لا يلتمسون العبرة ما بَسَمَ لهم وجه الحياة ، فإذا نجَّهم وجه الحياة وانتقبض ، ذكروا العهود الخوالي لعل فيها ما يأسو كلوم الحاضر . وقد كان وجه الزمان باسمًا للمسلمين أى ابتسام . فما لهم ولبابل والأشوريين الذين أصبحوا أحاديث ، وهم يرون من حوطم حياة زاخرة ، وكنوزاً ثمينة ، وشعباً لا يلبث حين يسمع باسمهم أن يهرع إليهم بالطاعة ، ويلتمس عندهم العفو والمغفرة .

بل إن منهم كمن ذكروا لمراى بابل فعال المسلمين بها يوم عسكر المثنى بن حارثة على مرتفع من أطلالها ، وأقام بين شبكة من جداول دجلة ينتظر هرمز جاذويه وهجومه عليه . ذكر هؤلاء ذلك الموقف العصيب الذى فجأهم بعد مسيرة خالد إلى الشام ، وارتقاء شهريران بن أردشير عرش كسرى واعتزاه طرد العرب من بلاده ، وذكروا كيف قتل المثنى فيل هرمز ، وكيف هزم الفرس وتعقبهم حتى قاربوا المدائن . وتحدّث هؤلاء بما شهدوا من ذلك إلى أصحابهم الذين جاءوا مع سعد من المدينة ، والذين انضموا إليه من شتى الأرجاء فى شبه الجزيرة ، وذكروا لهم أن هذا السواد الذى يسرون فيه بين غدران مترعة ومزارع واسعة وحدائق يانعة ، قد خضع لسلطانهم ، فأكلوا من خيراته ، وأرسلوا إلى المدينة ما استطاعوا أن يرسلوه من ثمراته .

فبابل وسائر الأماكن التي يمر المسلمون بها كانت بعض ما فتحو وحكموا . كانت

القادسية في يدهم ، وكانت الحيرة مقر إمارتهم ، وكانت بُرس وكوثي وغيرهما من الريف والقرى تدين لهم ، وكانت المدائن مطمح أنظارهم . فهم اليوم يمرون بأماكن لكثيرين منهم فيها ذكريات رفاة ونعمة . وإنما الفرق بين أمسها ويومها أنها كانت لهم بالأمس مستقراً وكانوا فيها سادة حاكمين ، وهي اليوم ميدان فتح جديد ، فهم ينتقلون من واحدتها إلى الأخرى متجهين شمالاً بشرق من القادسية إلى الحيرة ، إلى بُرس ، إلى بابل يريدون سبابط والمدائن . وهم يجدونها اليوم أهون أمراً مما كانت من قبل بعد أن قَتَّ الوهن في أعضاد أهلها فأيقنوا أن لا مفرّ لهم من الله إلا إليه .

سار زهرة بن الحوية وهاشم بن عتبة يريدون المدائن فلما كانا على مقربة من بهرسير لقيتهما بسبابط كتيبة لبوران ابنة كسرى كان رجالها يحلفون كل يوم ألا يزول ملك فارس ما عاشوا . وكان مع هذه الكتيبة أسد تألفه كسرى : ولم تثبت الكتيبة للمسلمين أكثر مما ثبت جنود فارس بيرس وبابل . وكيف تثبت وقد رأت حظ الأسد كحظ الفيلة بالقادسية ! فقد اندفع هاشم بن عتبة فضربه بالسيف ضربة جدلته قتيلاً . هنالك قوت الكتيبة تحتمى ببهرسير . وأدرك سعد رجاله وعرف فعالمهم ، فقبل رأس ابن أخيه هاشم إكباراً لقتله الأسد ، وقبل هاشم قدم عمه تقديراً لعطفه . ثم رفع سعد رأسه إلى السماء شكراً لله ، واتجه بعد ذلك بنظره إلى ناحية المدائن وتلا قوله تعالى : (أَو لَمْ تَكُونُوا أَقْسَمْتُمْ مِنْ قَبْلِ مَا لَكُم مِّنْ زَوَالٍ !) .

وجعل سعد أول الليل يفكر في موقفه من المدائن . أيهاجمها وجنوده لا تزال تهزهم نشوة الظفر ، فهم أشد ما يكونون حرصاً على اقتحامها ؟ أم يريحهم أياماً ثم يسير بهم إليها ؟ لكنها منه على مقربة ؛ فإذا هو وقف دونها فقد يُغرى وقوفه أهلها بالحرص على الذود عنها . الخير إذاً أن يأخذهم على غرة . لذلك أمر بعد أن ذهبت هدأة من الليل فارتحل الناس حتى نزلوا على بهرسير .

وبهرسير ضاحية للمدائن ، تقع على الضفة دجلة اليمنى ، وتقع المدائن قبالتها على ضفته اليسرى ؛ فهي لذلك جزء منها وإن فصلها النهر عنها . والمدائن كلها تقع على نحو عشرين ميلاً إلى الجنوب من بغداد التي كانت يومئذ قرية ليس لها على غيرها من قرى دجلة أي امتياز .

وكانت المدائن عاصمة إيران منذ عهد بعيد . خلقت بابل ثم فاقها جلالاً وبهاء وعظمة . وقد ظلت ولها جلالها وجمالها مع ما أصابها من غزو الروم إياها واستيلائهم غير

مرة عليها ، ومع ما كان من اضطراب بلاطها وقيام الثورات فيها . لذلك كانت الأبصار تشرئب من جوانب العالم إليها ، وكان اسمها يبهر خيال الناس جميعاً ويثير فيه من معاني الروعة والسحر ما لا يثيره اسم رومية ولا اسم القسطنطينية ؛ فقد جمعت من معاني الترف الشرق أبهى صورته وأكثرها وحياً لآلهة الفن وشياطين الشعر . لا عجب وذلك شأنها أن يسير المسلمون إليها وكلهم شوق لما سيشهدون فيها مما لم تره عين ولم تسمعه أذن . ولا عجب أن يزيدهم هذا التصور حماسة وإقداماً ليصبح ما ظنوه خيالاً قد تجسم أمامهم حقيقة واقعة .

سار سعد بالناس إلى بهرسير والحماسة تهز الجند هزاً . لذلك كانوا كلما قدمت خيل عليها وقفوا ثم كبروا غير مرة ، لكنهم ألفوا أهلها تحصنوا بها وأغلقوا دونهم أسوارها ، فلا سبيل إلى اقتحامها ، ولا مفرً لذلك من حصارها . وحاصرها سعد وهو لا يخشى أن يبغته أحد من خلفه ، فقد بث الخيول فأغارت على ما بين دجلة والفرات ، فأصابوا مائة ألف فلاح جاءوا بهم أسرى ، وحفروا الخنادق من حولهم . لكن هؤلاء الفلاحين لم يكونوا جنداً محاربين ، فلم يكن من أسرهم فائدة ، ولم يكن في إطلاقهم من الأسر خطر . لذلك أشار شيرزاد دهقان ساباط على سعد فصرفهم إلى قراهم ليعملوا في الأرض ويكثروا من غلاتها . وكتب سعد إلى عمر بما صنع ، فأقر الخليفة مشورة شيرزاد . فأمن أهل السواد من شواطئ دجلة إلى أرض العرب وأقاموا يفلحون الأرض . وأدى الدهاقين الخراج والجزية فازداد الفلاحون أمناً . وأقام سعد على حصار بهرسير وهو لا يخشى أن يبغته من خلفه ، وهو مطمئن إلى أقوات جيشه .

ونصب المسلمون المجانيق وجعلوا يرمون بهرسير داخل أسوارها . ولم يهن الفرس لشدة هذا الرمي ، فقد أيقنوا أنهم إن لم يردوا عدوهم عن مدينتهم انكشفت أمامه العاصمة وعظم الخطر عليها . وليس الدفاع عن بهرسير بالأمر العسير ؛ فأسوارها قوية وحصونها منيعة ، وجسر دجلة يصلها بالمداخن ، وعلى هذا الجسر تجيء من أرجاء فارس المترامية أمداد لا تحصى وأقوات لا نهاية لها . لذا ثبتوا للحصار شهوراً طوالاً ، يختلف المؤرخون أكانت تسعة أو ثمانية عشر شهراً . وفي أثناء هذا الحصار كانت قواتهم تتخطى الأسوار أحياناً تقاتل المسلمين لعلها تنزل بهم من الهزيمة ما يردهم على أعقابهم . لكن المسلمين كانوا لا يفتنون يظفرون بهذه القوات ويردونها إلى المدينة مجللة بالعار تحتمي بأسوارها . فلما طال الحصار واشتد بالفرس ما يصيبهم أخرجوا جيشاً عليه من القواد من كانت

للجند بهم ثقة أى ثقة . لكن هذا الجيش انهزم كذلك ورجع إلى المدينة . وقتت هزيمته في أعضاء الفرس وأدخلت في روعهم أن هؤلاء المسلمين لا غالب لهم .

وكانت أنباء الحصار والقتال تبلغ يزدجرد يوماً فيوماً ، بل ساعة فساعة ، فيتولاه المم وبكاد يساوره اليأس . وطال ذلك به ورأى المسلمين بعد كل هذه الأشهر لا يهنون ، ورأى وراءهم من ثراء العراق طعاماً كرفع التراب . ثم رأى الفرس يزداد تهاقهم وتضعف حماسهم ، فأيقن أن بهرسير لا محالة صائرة إلى عدوه . عند ذلك بعث إلى سعد رسولا يعرض للصالح أن يكون دجلة حداً فاصلاً بينه وبين العرب ، « فلنا ما يلينا من دجلة وجبلنا ، ولكم ما يليكم من دجلة إلى جبلكم » . لكن سعداً رفض مصالحة يزدجرد وردّ رسوله . وكيف يصلحه وأمر عمر بفتح المدائن صريح لا لبس فيه ! وكيف يصلحه بعد أن هزم جنده أهل بهرسير وأسروا منهم ، وهم موشكون أن يقتحموا عليهم أسوارهم ! ولم يكن الرسول قد بلغ يزدجرد ليلغته رفض سعد بن أبي وقاص حين أمر بتشديد الحصار ومضاعفة الرمي بالمجانيق . ولم يجب أحد من بهرسير رماة المسلمين بنشابة ولا بسهم ، فأيقن سعد أن حامية المدينة تحلّت عنها ، فنادى في الناس ونهّدهم ليقتموها . وتسورها الرجال وفتحوا أبوابها فلم يجدوا بها من يردّ عاديةً عليها ، ولم يخرج إليهم منها إلا رجل نادى بالأمان علموا منه أن حامية بهرسير انتقلت إلى المدائن بأمر يزدجرد ، وأنها أحرقت الجسر وجمعت كل السفن التي تجرى فوق دجلة ، ليبقى النهر بتياره المتدفق خط دفاع يردّ الغزاة عن العاصمة العامرة .

دخل المسلمون بهرسير في جوف الليل ، فلم يثنهم ذلك عن الاندفاع إلى ناحية دجلة يريدون عبوره إلى المدائن ليقتموها كما اقتحموا ضاحيتها . ولم يجدوا الجسر يعبرون عليه ولم يجدوا سفناً تحملهم ، فوقفوا على شاطئه ، فرأوا أمامهم منظراً بهرماً ، فأقاموا مبهوتين يحدقون فيه ملء عيونهم وملء قلوبهم ولا يكادون يصدقون ما يرون : بناء ضخّم بالغ غاية الروعة والهيبة والفخامة يقوم أمامهم على الشاطئ الآخر إلى ارتفاع لم تألفه أبصارهم ، ويميزه بياض لونه برغم دجى الليل المُدْلهم . ورق الليل وصفت السماء وسرى في الجو نسيم عذب زاده لطفاً وزاد هذا المنظر الفدّ روعة وجلالا ؛ فأمسك الجند أنفاسهم وفتحوا عيونهم وأفواههم أن ملك الإعجاب عليهم كل حواسهم . وتلاحقت فرق الجند إلى النهر ووقفت على شاطئه تولاهما البهْر وكأما سمّرت في أماكنها . فلما أقبل ضرار بن الخطاب في زمرته ، ورأى ما رأوا ، نادى بأعلى صوته : الله أكبر ! هذا أبيض كسرى ! هذا

ما وعد الله ورسوله ؟ عند ذلك تعالت الأصوات بالتكبير من كل جانب وأيقن الناس جميعاً أنهم بإزاء هذا الإيوان الذى طالما سمعوا به مذكوراً فى شعر الشعراء وأحاديث المحدثين . وجعلوا يكبرون حتى أصبحوا وكلهم الشوق ليعبروا إلى الإيوان ، وليحيطوا به وليملثوا عيونهم منه وليدخلوه ، وليروا تحت كسرى فى بهوه العظم ، وليروا قائدهم جالساً عليه يعلن كلمة التوحيد فتجيبه الأصداء من كل جوانب القصر بأن صدق الله وعده ، فكلمة الذين كفروا السفلى وكلمة الله هى العليا ، والله عزيز حكيم .

لم يكن عجباً أن يتولى المسلمين البهر لمراى قصر كسرى ؛ فقد كان هذا القصر عجيبة الأرض لذلك العهد . ولم يكن قدمه موضع العجب فيه ، فقد كان يومئذ حديثاً لم يمض على بنائه مائة عام ؛ إنما كان جلاله وكانت عظمته موضع العجب . شاده كسرى أنوشروان ، سنة خمسين وخمسمائة لميلاد السيد المسيح ، طرازاً يذّ به أفخر عمائر الرومان والإغريق جميعاً . كانت واجهته تزيد على مائة وخمسين متراً ، ويُرَبى ارتفاعه على أربعين متراً ، وكانت القباب الجاثمة فوق أهبائه الخمسة تتوّج بهاءه وجلاله ، وتشير التطلع فى نفوس هؤلاء العرب الذين شدّت أبصارهم إليه عما عسى تحتوى هذه الأهباء من ثراء وزخرف . إن بها لا ريب من ذلك ما يقصر الخيال دونه . وهذا البهو الذى يتوسطها ، وتعلو قبة قبابها جميعاً ، هو لا ريب هذا الإيوان الذى لم يسمع الناس فى العالم كله بشيء من مثله . أليست الأحاديث تجرى عن تحت كسرى والجواهر الكريمة التى ترصّع قوائمه بما يشبه الأساطير ! ! والتخت والإيوان والقصر قائمة كلها أمام الجند لا يفصل بينهم وبينها إلا النهر وهى تزيدهم فى كل لحظة بهراً . متى إذاً يعبرون إليها ويرون رأى العين كل ما فيها ؟ !

بينما تدور هذه الخواطر فى نفوس المسلمين يغذّيها خيالهم ، ويزيدها منظر المدائن حياة وقوة ، كان يزدجرد مشّت الخاطر بهم على وجهه فى أهباء القصر وقد ركبتة الوسواس من كل جانب . إن دجلة حصن طبيعى بسعة مجراه وتدفع تياره . وقد زاده فى هذا الفصل سعة وزاد تياره تدفعاً ذوبان الثلوج فى أعالي الجبال التى ينبع منها بأذربيجان والموصل . . ولا سبيل للمسلمين إلى تخطيه بعد أن جمعت السفن كلها إلى جانبه الشرقى . ألا تستطيع قوات الفرس أن تحمى شاطئه ، وأن تدفع بذلك كل خطر عن العاصمة ؟ هذا هو التفكير الطبيعى فى مثل هذا الموقف ، وكان جديراً بيزدجرد أن يتجه إليه ، وأن يدعو قواده يدير معهم الرأى فيه ، وأن يبعث من روحه الشاب إلى أرواحهم وأرواح

الناس جميعاً من أهل العاصمة حماسة للذود عن حرمتهم وعن كرامتهم . ولو أنه فعل
لكان ذلك أقلّ ما يجب عليه لنفسه ، ولأمة أسلمته زمامها ، والتفت حوله للدفاع
عن كيانها .

لكن اضطرابه أضلّ قلبه وأفسد تفكيره ، وجعله يرى هؤلاء المسلمين حيناً لا تقف
قوة في سبيلهم ولا طاقة لأحد إلا بالفرار أمامهم . ومن أولى منه بأن يكون أمام الناس
في هذا الفرار . نجاة بنفسه وبأهله ! لذلك أمر رجاله فحملوا بيت ماله وما خف من
متاعه وخزائنه ، وحملوا النساء والذراري وخفّوا بهم يقصدون حلوان . ورأى الناس ما صنع
عاهلهم ، فخارت عزائمهم واندفعوا يفكرون في النجاة بأنفسهم وذويهم . أليس
الناس على دين ملوكهم ! ولماذا يكون أهل الملك وجواريه أعز عليه من زوج الجندي
أو القائد وأبنائهم عليه ! ! بذلك انهارت روح المقاومة في أنفوس الفرس ، ولم يبق
لهم أمل في غير الحظ يسعدهم فيجعل النهر أداة في رد الغزاة عنهم ، أو يعثر بهم كرة
أخرى فلا سلطان لهم عليه ولا سبيل إلى مقاومته .

وكذلك كان دجلة يجرى بين جندين : جند تحطمت قواه فلم يبق له عزم ولا إرادة
فألقي بيديه وترك للحظ مصيره ، وجند سمّت روحه المعنوية وبلغ من قوة الإيمان بالنصر
حتى خيل إليه أنه يضرب النهر بعصاه ينفرج فيه طريق يجتازه عليه إلى إيوان كسرى .
هذه معجزة أتاحتها الله لكليمه موسى ففر بها من مصر مع قومه . وسيتيح الله اليوم مثلها
لجند المسلمين فيعبرون النهر ويقتحمون المدائن ويديلون دولة الأكاسرة ، ويرفعون لواء
الحق فوق الإيوان الأعظم .

نعم ! هي معجزة تلك التي اجتاز المسلمون بها دجلة . لقد وقفوا على شاطئه
ينظرون إلى تدافع مياهه ، ويفكر سعد في الوسيلة إلى عبوره ، فلا يسعفه التفكير
بنافع . فأمر رجاله فجاءوه بعلوج من الفرس سلّم فدلّوه على مخاضة في النهر
تخاض إلى صلب الوادي . لكنه خشى عادية التيار على الجند ، وهو حريص أن
يبقى على كل رجل . لذلك تردد فلم يعمل بما أشاروا به . فلما كان الغد أتاه النبأ
بأن يزدجرد أمر بخزائنه أن تحمل إلى حلوان . عند ذلك جمع الناس وقام فيهم
خطيباً ، فحمد الله وأثنى عليه وقال : « إن عدوكم قد اعتصم منكم بهذا البحر فلا
تخلّصون إليه منه . وهم يخلصون إليكم إذا شاءوا فيناوشونكم في سفنهم . وليس
وراءكم شيء تخافون أن تؤثروا منه ؛ فقد كفاكموهم أهل الأيام وعطلوا ثغورهم وأقنوا

ذادتهم . وقد رأيت من الرأى أن تبادروا جهاد العدو بنياتكم قبل أن تحصركم الدنيا .
 ألا إني قد عزمت على قطع هذا البحر إليهم . »

أية مفاجأة هذه التي فاجأ سعد بها رجاله ! أو لم يكن إلى أسس متردداً !
 ألا يخاف أن يتردد الناس فلا يقوون على أمر فيه من الخطر أهوله ! لكن الناس لم
 يترددوا ؛ فقد سحرهم مرأى المدائن أعظم السحر ، وجذبهم قصر كسرى إليه بقوة
 دونها كل قوة ، فهم يُقدِّمون على المستحيل ليدخلوا العاصمة وليحيطوا بالقصر .
 لذلك لم يكدهم سعد ثم كلمته حتى قالوا جميعاً : « عزم الله لنا ولك على الرشد
 فافعل . »

ولكن كيف يعبرون؟ وهبهم عبروا على خيولهم ، فجند فارس على الشاطئ الآخر
 يصدونهم فلا يخرجون من الماء . تنبه سعد لهذا فندب الناس وقال : من يبدأ ويحمي
 لنا الفراض^(١) حتى نلاحق به الناس لكي لا يمنعهم من الخروج ؟ ! وانتدب عاصم
 ابن عمرو ذوالبأس ، وانتدب بعده ستمائه من أهل النجدة ، فأمر سعد عاصماً
 عليهم ، فساروا حتى بلغوا شاطئ دجلة قال عاصم لأصحابه : من ينتدب معي
 لنكون قبل الناس دخولاً في هذا البحر فنحى الفراض من الجانب الآخر؟ وانتدب
 له ستون فارساً تقدّمهم هو إلى حافة النهر وهو يقول للذين تردّدوا : أتخافون من هذه النطقة !
 ويتلو قوله تعالى : (وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ كِتَابًا مُؤَجَّلًا) . ثم دفع
 فرسه فافتحم النهر وافتحم زملاؤه معه . ورأى القعقاع بن عمرو هذه الكتيبة الأولى
 تتقدم في سبحها ، ومدّ بصره إلى الجانب الآخر من النهر ، فرأى الفرس وكأنما
 يتهاون للقائها ، فأمر أصحابه الستمائة فدفعوا خيولهم إلى النهر فدخلوه كما دخله
 عاصم وأصحابه . وتولى الفرس العجب لما صنع عدوهم ، فقال بعضهم : مجانين ،
 مجانين ! وقال آخرون : إنكم والله ما تقاتلون إنسابل تقاتلون جنّاً !

وأقام الفرس ينظرون إلى هؤلاء المغامرين ، فلما رأوا عاصماً وأصحابه توسطوا
 النهر أرسلوا فرساناً ليمنعوهم من الخروج وليقاتلوهم في الماء . ودنوا من عاصم حين
 دنوا من الفراض ، فقال عاصم لأصحابه : الرماح ، الرماح ! أشرعوها وتوخوا
 العيون . وارتدت خيول الفرس حين أصابت الرماح عيونها ، فلم يملك فرسانها دفعها
 ليلقوا هؤلاء الذين خاضوا غمار الموت في لجة النهر لا يباليون ما يصيبهم . ولم يُصب

(١) الفراض : جمع فوضة ، وهي هنا نفور المخاضة من الناحية الأخرى .

أحد من كتبية الأهوال بأذى ، بل خرج عاصم على رأسها إلى الشاطئ ففرّ الفرس أمامه . وأدركه القعقاع على رأس الكتبية الخرساء فلم يبق على الشاطئ من الفرس أحد .

ورأى سعد بن أبي وقاص تحكّم أصحابه في فِراض المدائن ، فأمر فرسانه فاندفعوا جميعاً ألوفاً مؤلفة إلى لجة النهر من حيث اقتحمه عاصم . وامتلاً النهر بالخيول ، فلم يكن ماؤه في هذه الساعة ليُرى . وأمر عاصم أصحاب الزوارق والسفن من الفرس فدفعوها إلى جانب بهر سير ، فنقلت من جيش المسلمين من لم يعبر على جواده . فلما عبر سعد بالجيش كان أهل المدائن جميعاً قد فرّوا ، ولم يبق منهم إلا من تحصنوا بالقصر الأبيض . ولم يقاوم هؤلاء ، بل قبلوا أداء الجزية ، وفتحوا أبواب القصر للمسلمين .

هذه معجزة من معجزات الحروب لا يكاد العقل يصدقها . فيقول ابن كثير في البداية والنهاية بعد أن يَمّ وصفها : « وكان يوماً عظيماً وأمرأ هائلا : وخطباً جليلاً ، وخارقاً باهراً ؛ ومعجزة لرسول الله صلى الله عليه وسلم خلقها الله لأصحابه لم ير مثلها في تلك البلاد ولا في بقعة من البقاع » . وهذه العبارة للمؤرخ الإسلامي تصور شعوره وتصور شعورنا حين ترتسم أمامنا هذه الفعال الباهرة وهذا الإقدام فاق كل إقدام . وهل كلمة غير المعجزة تصح وصفاً لهذه الأعمال ؟ وأية معجزة كأن تقتحم كتبية الأهوال النهر وعاصم على رأسها ، وأن تقتحم الكتبية الخرساء النهر والقعقاع على رأسها ، ثم لا يخشى رجل في الكتبتين أن يتلعه الموج أو أن يرميه الفرس من الشاطئ الآخر بالنبال ! ! لكنه الإيمان بالنصر يسمو بالنفس إلى حيث تصبح الحياة ويصبح الموت أمامها أفاظاً يتساوى مدلولها في سبيل الغاية التي تريد دركها . ولم يكن للمسلمين صبر على المدائن ، فهم يريدون أن يقتحموها وإن بذلوا لفتحها كل ثمن ، وإن بذلوا لفتحها مُهَجِّهم وأرواحهم . لذا قال الفرس حين رأوهم : إنا لانقاتل إنساً بل نقاتل جنّاً ثم لم يشبوا لهذا الجن الذي جاءهم من خلل الموج وكأنه بعض قوى القَدَر التي تزلزل الأرض وتذك الجبال . أليست البراكين والصواعق من قوى القدر ؟ كذلك كانت الكتبتان ، وكذلك كان سعد وسائر الجيش إذ اندفعوا إلى النهر فرقة بعد فرقة يُحيلون لجة مائه خيولاً وفرساناً . كيف لقوة أن تثبت أمام هذه القوة ! وماذا يصنع الفرس ، وقد انحلت قواهم وتحطمت

روحهم ، إلا أن يفروا أمام هذا الجن الذي جاءهم فملاً نفوسهم رعباً وفزعاً !
« هذه معجزة لم ير مثلها في تلك البلاد ولا في بقعة من البقاع » . تلك ألفاظ ابن كثير . ولولا أن تيمورلنك أتى بمعجزة مثلها إذ عبر جيشه النهر سبحانه هاجم بغداد في العقد الأخير من القرن الرابع عشر المسيحي ، لتردد بعضهم في تصديقها . بل إن البلاذري ليزكرها في شيء من الحذر ، ويضيف إليها روايات يراها أدنى إلى أن تصدق . من ذلك رواية أبان بن صالح إذ يقول : « انتهى المسلمون إلى دجلة وهي تطفح بماء لم ير مثله قط ، وإذا الفرس قد رفعوا السفن والمعابر إلى الجزيرة الشرقية وحرقوا الجسر ، فاعتم سعد والمسلمون إذ لم يجدوا إلى العبور سبيلاً ، فانتدب رجل من المسلمين فسبح فرسه وعبر فسيح المسلمون ، ثم أمروا أصحاب السفن فعبروا الأثقال . فقالت الفرس : والله ما تقاتلون إلا جنًا فانهزموا » . ومنه رواية أبي عمرو ابن العلاء إذ يقول : « لم يجد سعد معابر فدلَّ على مخاضة عند قرية للصيادين ، فأخاضوها الخيل ، فجعل الفرس يرمونهم ، فسلموا غير رجل من طيئ لم يُصَبَّ يومئذ غيره » .

أنت لا ريب ترى ما في هذه الروايات من احتياط يشعر بأن أصحابها يترددون في التسليم بالرواية التي سقناها وأجمع عليها الطبري وابن الأثير وابن خلدون وابن كثير وغيرهم . ولكن هذا الاحتياط لا ينفي هذه الرواية ولا يثبت ما يعارضها ، وإنما هو احتياط من يرى فيها عجباً يدعو إلى شيء من الشك فيها . ولو أن هؤلاء الذين تشككوا عاشوا إلى أواخر القرن الرابع عشر المسيحي وعرفوا أن تيمورلنك عبر دجلة بجيشه ، كما عبر سعد بجيشه ، لانقضى عجبهم وزال من نفوسهم كل شك في الرواية التي اجتمعت الأقوال عليها ، بل لما رأوا عجباً فيها يدعونها إلى العجب ، ولأيقنوا أن سعداً « اقتحم بفرسه دجلة واقتحم الناس لم يتخلف عنه أحد . فساروا فيها كأنما يسرون على وجه الأرض حتى ملثوا ما بين الجانبين ، فلا يرى وجه الماء من الفرسان والرجالة . وجعل الناس يتحدثون على وجه الماء كما يتحدثون على وجه الأرض ، وذلك لما حصل لهم من الطمأنينة والأمن ، والثوق بأمر الله ووعده ونصره وتأييده . . . وأن سعداً دعا لجيشه هذا في هذا اليوم بالسلامة والنصر ، وقد رمى بهم في هذا اليم فسددهم الله وسلمهم ، فلم يفقد من المسلمين رجل واحد ، ولم يعدم للمسلمين شيء من أمتعتهم غير قدح من خشب لرجل كانت علاقته رثة فدفعه

الموج إلى الجانب الذى يقصدونه ، فأخذته الناس ثم ردّوه على صاحبه
وكان الذى يسير سعد بن أبي وقاص في الماء سلّمان الفارسي ، فجعل سعد يقول :
حَسْبُنَا اللهُ ونعم الوكيل . والله لينصرنَّ اللهُ وليه ، وليُظهِرنَّ اللهُ دينه ، وليهزمنَّ اللهُ
عدوه ، إن لم يكن في الجيش بغى أو ذنوب تغلب الحسنات . فقال له سلمان :
ذُللتَ لهم والله البحور كما ذُللَّ لهم البر ، أما والذى نفس سلمان بيده ليخرجنَّ منه
أفواجاً كما دخلوا أفواجاً . فخرجوا منه كما قال سلمان لم يغرق أحد ولم يفقدوا شيئاً .
وخرج جيش المسلمين من الماء تفض خيوله أعرافها صاهلة ، ودخلوا المدائن
فلم يجدوا إلا من تحصن بالقصر . ذلك أن يزيدجرد كان قد أخذ سائر أهله ومآقبر
عليه من الأموال والمتاع وفروا إلى حلوان . ودعا سعد من تحصنوا بالقصر ليتزلوا
فتزلوا ، ودخل يجنده ، وجعل يجيل بصره فيما احتواه هذا القصر المنيف من نفائس
ومتع ويتلو قوله تعالى : (كَمْ تَرَكُوا مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ . وَنِعْمَةَ
كَانُوا فِيهَا فَكَاهِينِ . كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا آخَرِينَ . فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ
وَمَا كَانُوا مُنظَرِينَ) .

ما أعظم هذا الفتح وأجله ! فهذه مدينة كسرى وهذا إيوانه . وهؤلاء هم جنود
شبه الجزيرة المجدية الجرداء يسرون تولاهم البهرخلال جنات القصر بين أزهار يانعة
وأشجار باسقة وتمر وفاكهة وأعنان شتى ألوانها ، لم تقع أعينهم على مثلها . وينتقلون
من الحدائق إلى الأبهاء فيزيدهم ما فيها بهراً . نقوش جلّ جمالها وجلّت دقتها عن
الوصف ، وأثاث لم يروا في دمشق نظيره ، وطنافس من حرائر فارس طُرزت بالذهب
والفضة ، وأسباب الترف والنّعمة جمعت إلى هذا الإيوان من بدائع صنع الشرق
في مختلف أرجائه . أىّ شيء هذا كله ! وهل يجزى الشكر لله عنه ؟ ! لكن سعداً
وأصحابه لا يملكون غير الشكر لله على ما فتح عليهم . لذلك صلّى سعد شكراً لله صلاة
الفتح ، ثماني ركعات بتسليمة واحدة ، ثم أمر أصحابه فجاءوا بعينالات المسلمين
من الحيرة ومن سائر مدن العراق وقراه ، فأنزلهم في المدائن .

ونزل سعد قصر الأكاسرة وأقام به ، واتخذ الإيوان مصلى ، وترك ما به من
تمائيل قائماً لم يحركه . وماله يحركها ولم تكن إلا بعض الزخرف الذى ازدان به
القصر وازدانت به أبهاؤه جميعاً ، وإن خصّ الإيوان منه بأكثره بهاء وروعة ! وقد
كما الزخرف وكست النقوش جدران القصر من مستوى الأرض إلى أعلى العقود ،

ثم تركت الجدران التي تبدل للنظر من الخارج ملساء ساطعة البياض .
 ووجد سعد خزائن كسرى مترعة بالأموال وبنفيس الثياب والأمتعة والآنية والألطف
 والأدهان وما إلى ذلك مما لا تعبر الألفاظ والأرقام عن قيمته . وكان سعد قد بعث
 جنده يطاردون يزدجرد والذين فرّوا معه إلى حلوان ، فأدركوهم وجاءوا به وبما حملوه ،
 فإذا قيمته تضاهى قيمة ما بالقصر . ووجد المسلمون بدور المدائن من التحف والنفائس
 ما أذهل خيالهم ، وما دلّ على ترف أهلها ترفاً لم يعرفه غير الفرس .

وإنا لتتولانا الدهشة اليوم لنفاسة هذه الغنائم وقيمتها وكثرتها ، فلا عجب أن
 تولّت أولئك الفاتحين الذين رأوا هذه الغنائم بأعينهم أضعاف ما يتولانا من البهر
 والدهشة ، وأن يذكر المؤرخون العرب هذه الغنائم في تفصيل يسوّغ دهشتنا ودهشة
 الفاتحين .

ذكروا أن سعداً وجد بخزائن كسرى ثلاثة آلاف ألف ألف دينار ، ثلاث
 مرات ، ووجدوا بالقصر من التحف والأمتعة ما لا تُدرى قيمته . وجاء الذين
 خرجوا في أثر يزدجرد بتاج كسرى مرصعاً بالدر والجوهر ، وبشبابه من الديباج المنسوج
 بالذهب المنظوم بالجوهر ، ومن غير الديباج منسوجاً ومنظوماً ، كما جاءوا بخزائن
 كسرى وشاحه ودرعه التي فيها الجواهر . وطارد القعقاع بن عمرو فارسياً فقتله وأخذ
 منه عيبتين فيهما أسياف وأدراع لكسرى ولهرقل ولخاقان الترك وللنعمان وملوك آخرين
 غزاهم الفرس وعزّوا الفرس . وجاء عصمة بن خالد الضبيّ بسفطين في أحدهما
 فرس من ذهب بسرج من فضة وعلى ثغره ولبيّاته البياقوت والزمرد المنظوم على الفضة ،
 ولجامه كذلك ، وفارس من فضة مكمل بالجواهر ، وفي الآخر ناقة من فضة عليها
 شليل^(١) من ذهب وبطان من ذهب ولها زمام من ذهب ، وكل ذلك منظوم بالياقوت ،
 وعليها رجل من ذهب مكمل بالجواهر . ووجد المسلمون بدور المدائن سِلَلاً مختومة
 برصاص ظنوا ما فيها طعاماً فإذا هو آنية من الذهب والفضة متمالين . ووجدوا بدور
 المدائن كذلك كافوراً كثيراً حسبوه لكثرتهم ملحاً فعجنوا به فوجدوه مرّاً .

ترى أغرت هذه الكنوز أولئك العرب ، فهم أحد منهم بأن يأخذ شيئاً منها
 لنفسه ولا يرده إلى من ولاهم سعد قبضها ليقسمها من بعد؟ كلا ! بل جاء كل بما
 استولى عليه من السلب فسلمه إلى القبض حتى يرى سعد فيه رأيه . ولما جاء القعقاع

(١) الشليل هنا : مسخ من صوف أو شعر يجعل على عجز البعير من وراء الرجل .

ابن عمرو بأسياف كسرى والملوك وأحضرها عند سعد خيرَ بينها ، فاختر سيف هرقل وترك ساثرها . وأقبل رجل إلى والى القبس بحقّ نفيس ، فقال الوالى والذين معه : مارأينا فيما عندنا مثل هذا مايعدله أو يقاربه ، سألوا الرجل : هل أخذت منه شيئاً؟ قال : لا والله ، لولا الله ما أتيتكم به ! سألوه : من هو؟ فقال : لا أخبركم فتحمدوني ، ولكنى أحمد الله وأرضى بثوابه . وعرف سعد أمر هذا الرجل وأمثاله ، فقال : والله إن الجيش لذو أمانة ، ولولا ماسبق لأهل بدرٍ لقلت إنهم على فضل أهل بدر . وكان جابر بن عبدالله يقول : « والله الذى لا إله إلا هو ما أطلعنا على أحد من أهل القادسية أنه يريد الدنيا مع الآخرة . فقد اتهمنا ثلاثة نفر هم طليحة وعمرو بن معدى كرب وقيس بن المكشوح فما رأينا كأمانتهم وزهدهم » . وهذه الشهادة من جابر لأولئك الثلاثة لها دلالة خاصة ، فقد كانوا على رأس المرتدين الذين حاربهم أبو بكر وحاربوه حرصاً على الدنيا وسلطانها . وهام أولاء حسن إسلامهم فأصبحوا فى طليعة العرب جهاداً فى سبيل الله ، وزهداً فى الدنيا ، وتقرباً إلى الله بالعمل الصالح والبلاء فى الحرب أحسن البلاء .

فصل سعد خمس الغنائم ليرسله إلى المدينة ، وحرص على أن يكون فيه كل مايعجّب منه العرب وكل ما يُعجبهم . ثم أراد أن يرسل خمس القطيف ، وهو بساط كسرى ، فراه لاتعتدل قسمته ، فقال للمسلمين : هل تطيب أنفسكم عن أربعة أخماسه ، فنبعث به إلى عمر يضعه حيث يشاء ، فإننا لانراه ينقسم وهويبتنا قليل ، وهو يقع من أهل المدينة موقعاً؟ وكان هذا البساط مربعاً ستون ذراعاً فى مثلها ، وكانت الأكاسرة تعدّه للشاء إذا اشتدّ القرّ وذهبت الرياحين . وقد صوّرت فى هذا القطيف طرق المملكة وبُسطت فيه الأرض مُذهبة تجرى خلالها أنهاررصعت بالدر ، وجعلت حافاته كالأرض المزروعة فيها نبات الربيع قام على سوق من ذهب ، وجعل ورقه من الحرير وتموه من الجوهر . وأقرّ الناس رأى سعد ، فأرسل القطيف مع الخمس إلى المدينة .

وقسم سعد النوى فى الجند ، وكان قد تم ستين ألف فارس ، فأصاب الفارس منهم اثنى عشر ألفاً ، ثم جعل لأهل البلاد على قدر بلادهم . وقسم سعد المنازل بين الناس ، وأنزل العيالات فى الدور فأقاموا بها حتى ارتحل منهم من ارتحل عنها بعد أن امتد الفتح إلى ما وراءها من ريف فارس . وأنت فى حلٍّ من أن تصور لنفسك

مبلغ ما أدت إليه هذه المغانم من غبطة الناس ومن حماسهم لفتح جديد يدبر عليهم مغانم جديدة .

ذهب بشير بن الخصاصية بخمس النوى إلى المدينة ، ووضعه بين يدي أمير المؤمنين ، وكان عمر قد سبقت إليه الأنباء بفتح المدائن ، إذ كتب سعد إليه بما يجعله كأنه حاضرها . مع ذلك دهش لما رأى من كثرة هذا النوى ونفاسته وإحضار المسلمين له كاملاً ، فالتفت من حوله يقول : « إن قوماً أدوا هذا لأمناء ! » . وأجابه علي بن أبي طالب « إنك عفتت فعفت رعيته . ولو رعت لرعت » . ونظر عمر إلى ثياب كسرى وأسيافه ودروعه ، فألبسها خشبة ونصبها أمامه ليرى الناس ما في هذه الزينة من العجب . وقيل إنه دعا إليه سراقه بن جعشم ، وكان من أجسم العرب وأبدنهم ، فألبسه قميص كسرى وسراويله وقباءه وسيفه ومنطقته وسواريه وتاجه وخفيه وقال له : أدبر فأدبر ، ثم قال له أقبل فأقبل ، ثم قال : بَخْ بَخْ ، أعيراني من بني مدلج عليه قباء كسرى وسراويله وسيفه ومنطقته وتاجه وخفاه ! رَبَّ يَوْمَ يَأْسُرَاقُ بِنِ مَالِكِ لو كان عليك فيه هذا من متاع كسرى وآل كسرى كان شرفاً لك ولقومك ! . . . وقيل كذلك إنه كانت لكسرى عدة أزياء لكل حالة زى ، فجاء عمر بأجسم عربي بأرض المدينة وجعل يلبسه إياها زياً بعد زى ، فيرى الناس ينظرون إليها أمراً عظيماً من سحر الدنيا وفتنتها . فلما فرغ الأعرابي من لبسها جميعاً رفع عمر رأسه إلى السماء وقال . « اللهم إنك منعت هذا رسولك ونيك ، وكان أحب إليك منى ، وأكرم عليك منى ، ومنعت أبا بكر ، وكان أحب إليك منى ، وأكرم عليك ؛ وأعطيتني ، فأعوذ بك أن تكون أعطيني لتمكربي ! » .

هذه لفظة من لفظات عمر سيد كرها من بعد ، وسيد كراثها في الأمة في صراحة دونها كل صراحة ؛ فقد أحس بما لهذا الترف من فتنه تجذب النفوس إليه فتجعله مثلها الأعلى تنفق في سبيله كل ما أوتيت من قوة وتدبير ، وتنصرف لذلك عن المعاني الإنسانية الكريمة التي تسمو بقلوبنا وعقولنا إلى أرفع الذرى فتقربنا من الله وتجعلنا بفضل منه نرى وجه الحق ذى الجلال . ولهذا اللفظة ، ولخشية عمر أن يكون الله قد أعطاه متاع كسرى ليمكربه ، بكى حتى رحمه من كان عنده ، ثم أشار إلى هذا المتاع وقال لعبد الرحمن بن عوف : « أقسمت عليك لما بعته ثم قسمته قبل أن تسمى ! » . وقسم عمر الخمس بين الناس على أقدارهم ، ونقل منه من غاب ومن شهد من

أهل البلاء . ورأى القطيف لا ينقسم فقال لمن حوله : « أشيروا عليّ في هذا القطيف » . قال الملاء : قد جعل الجند ذلك لك ، فالرأى فيه رأيك . وقال بعض : إنه لأمر المؤمنين لا يشركه فيه أحد . وأبي عمر أن يقبضه أو يبدى في أمره رأياً فقام عليّ بن أبي طالب فقال : « لم يجعل الله علمك جهلاً ، ويقينك شكاً . إنه ليس لك من الدنيا إلا ما أعطيت فأمضيت ، أو لبست فألبيت ، أو أكلت فأفنت . وإنك إن تبتّهِ اليوم على هذا لم تعدم في غد من يستحق به ما ليس له » . قال عمر : « صدقتني ونصحتني » . ثم قطع القطيف وقسمه بين الناس ، فأصاب عليّاً منه قطعة لم تكن أجود تلك القطع ، ومع ذلك باعها بعشرين ألفاً .

بينما كان عمر يقسم النوى بين الناس بالمدينة ، فبرى الناس فيما يصيبهم منه نعمة من الله لم يكن لهم بمثلها عهد ، كان سعد بن أبي وقاص قد اطمأن بالمدائن واستقر بقصر كسرى وجعل إيوانه مصلياً للمسلمين ؛ ينادى فيه باسم الله ، وتقام فيه الصلاة ، ويجتمع الناس به كل جمعة ليخطبهم سعد ويؤمهم . وكان يزدجرد قد نزل حلوان مغموماً مدحوراً ، يقطع الهم نياط قلبه ويفرى الأسى كبده ، ويذكر عظمة فارس وجلال مجدها ، فيزداد به الحزن ، ويتراءى له شبح رسّم وما كان يذكره من دلالات النجوم . أين يومه اليوم من تلك العهود الخوالي حين زحف أسلافه من إيران إلى العراق فاكتسحوه إلى شواطئ دجلة ، وحين أقاموا بطيسفون قبالة سلوقية ، وحين مدّوا طيسفون ، وضموا إليها ما حوفا من البلاد ، وجعلوا منها ومن سلوقية بلداً واحداً هو المدائن ، ثم أطلقوا على سلوقية اسم بهرسير لينسى أهلها أيام عزها ، إذا كانت مدينة يونانية حريصة على استقلالها ، حرص إسبرطة على استقلالها ! وأين يومه اليوم من عهود أجداده الأكاسرة بني ساسان الذين دونخوا العالم ، ومن عهد جده أردشير صاحب القصر والإيران والقمخامة والنّعمة ! إنه اليوم ملك غلب على أمره ، وطرد من عاصمة ملكه ، ففر كما يفر الجبناء . أترأه يصبر على هذه الهزيمة ويرضى بهذه النكبة ، وهل كتب القدر لهؤلاء العرب أن يطاردوه إلى أقصى الأرض ؟ إن به من حرارة الشباب وإقدامه ما يمدّ له في حبال الأمل . أبقيت له من هذا الأمل بقية ؟ أم حطمت الهزيمة هذا الإقدام وأثلجت تلك الحرارة ، فقضت في نفسه على كل أمل وكل رجاء ؟ !

لم يفكر الشاب المنهزم في شيء أول ما نزل حلوان . لقد عرض على المسلمين الصلح على أن يكون دجلة حداً فاصلاً بينه وبينهم . أترأهم وقد فتحوا المدائن يكتفون بها ويقفون

عندها؟ إنهم إن فعلوا يحققوا بعض رجائه ، والمستقبل كفييل من بعد بتدبير شأنه .
لكنهم متصرون ، والمتصرا لا يعرف هوادة ، وجيشه الكثرية تطير إلى كل جانب
تطلب النجاة . فليترك الأمر للأيام ! وغد لناظره قريب !
ماذا يكون في غد؟ ذلك حديثنا في الفصل التالى .